الارهاب لا يحارب بأجهزة الأمن وبيانات رجال الدين ولا يعالج بالحوار والمناصحة

2 - 1

أثارت العمليات الارهابية التي شهدتها بلادنا مؤخرا المزيد من التساؤلات حول مغزى تنامي موجة الإرهاب ، والإعلان الصريح لتنظيم (القاعدة) عن نفسه في عدد غير قليل من البلدان العربية، وتسابق الصحف الحزبية والمستقلة في اليمن على وجه التحديد لإجراء لقاءات مع مسؤولين مفترضين في تنظيم (القاعدة) بأسمائهم وصورهم الصريحة بعيداً عن الأسماء الحركية والصور الملثمة (!!)، إلى جانب الإسراف في نشر تصريحات وتحذيرات على لسان مصادر قيادية (أو مقربة) في هذا التنظيم الإرهابي الدولي الذي يفترض على الأجهزة الأمنية اليمنية ملاحقته بصورة جدية في داخل اليمن، كتجسيد لتعاونها مع أجهزة الاستخبارات العربية والعالمية التي تلاحقه في كل مكان في العالم، منذ صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم 13737 لعام 2001 بشأن مكافحة الإرهاب ومنعه من الحصول على مكان آمن، وقطع مصادر تمويله.

أحمد الحبيشي

والثابت ان الجرائم الارهابية التي أعلن تنظيم القاعدة طوال الفترة الماضية مسؤوليته عن القيام بها في مصر والاردن والسعودية واليمن والعراق والمغرب والجزائر وباكستان، فجرت ردود فعل ومناقشات ساخنة في البلدان العربية والاسلامية، حول ظاهرة الإرهاب ومنابعه وسبل تجفيفها، حيث لم تتوقف تلك المناقشات وردود الفعل على المجتمع المدني فقط بل تجاوزته لتصل الى اعلى مستويات النظام الرسمي في عدد كبير من الدول العربية. وهو ما يفسر الغضب الشديد في خطاب فخامة الرئيس علي عبدالله صالح لدى افتتاحه مخيمات الشباب الصيفية في العام الماضي 2007م ، إزاء تنظيم القاعدة حيث وجّه الرئيس اليمني الى قادة ومقاتلي هذا التنظيم ـ بصراحة غير مسبوقة ـ تهمة العمالة للصهيونية التي جندتهم لمحاربة الاتحاد السوفييتي خلال حقبة الحرب الباردة، ثم العودة لمحاربة مصالح أوطانهم ، بالاضافة الى تصريحاته الأخيرة التي أطلقها اثناء تواجده في محافظة حضرموت مؤخرا والتي اعلن فيها ضبط خلية ارهابية مرتبطة بالمخابرات الاسرائيلية !

تأسيسا على ذلك، يمكن القول إنّ الإرهاب الذي تمارسه جماعات متطرفة باسم الإسلام يتسبب في إلحاق أضرا ر جسيمة بمصالح المسلمين عموماً، كما يسيء في الوقت نفسه الى علاقتهم بالغير في إطار المجتمع الدولي والحضارة الإنسانية المعاصرة. حيث تحاول هذه الجماعات فرض وصايتها على العقل و الحقيقة والحرية، والتحدث باسم اللّه، والادعاء بحراسة الدين من خلال إباحة القتل وإهدار الأرواح وسفك الدماء ومصادرة حق الإنسان في الحياة وترويع الناس، وإثارة مشاعر الكراهية ضد أتباع الأديان الأخرى والمذاهب الاسلامية المخالفة الفكر الوهّابي والمهووسين به ، وما يترتب على ذلك من تهديد مباشر للسلم الاجتماعي على مستوى كل بلدٍ إسلامي، وصولاً الى زعزعة الأمن والسلم الدوليين على مستوى العالم الإنساني عموماً.

المثير للدهشة أننا عقب كل جريمة إرهابية يرتكبها المتطرفون باسم الدين نكتشف حقيقة جديرة بالتأمل، وهي أنّ أخطار هذه الجرائم الإرهابية لا تهدد فقط حق الإنسان في الحياة، بل تمتد لتشمل الدين نفسه، حيث يؤدي نشر وممارسة الأفكار المنحرفة والدفاع عنها أو البحث عن ذرائع لتبريرها، إلى تشويه صورة الإسلام وتحريف رسالته السامية، وهو ما يفسر قيام رجال الدين والمؤسسات والهيئات الدينية بإصدار بيانات الاستنكار الموسمية عقب كل جريمة ارهابية، وإعلان براءة الاسلام منها، دون أن يؤدي ذلك الى وقف الارهاب الذي ارتفعت معدلاته بوتائر عالية وملحوظة رغم تكاثر لجان (الحوار) و(المناصحة) وتزايد بيانات الاستنكار والبراءة من رجال الدين الذين اعتادوا على إصدار بيانات موسمية ـ يشبه بعضها بعضاً ـ بعد كل جريمة ارهابية يكتوي بها بلد عربي أو إسلامي !!؟؟

وقد سبق لكاتب هذه السطور ان تناول في مقالات عديدة سابقة تقييما للجهد المبذول من قبل الحكومة اليمنية والحكومات العربية في مواجهة الإرهاب وملاحقة مرتكبيه، بيد أنّ هذا الجهد ظل ولا يزال محصوراً في المستوى الأمني فقط، فيما تظل المنابع التي تصنع التطرف والإرهاب آمنة وسالمة وغانمة، الأمر الذي يؤدي الى إعداد وتفريخ المزيد من المتطرفين الذين يواصلون مسيرة سابقيهم ممن طالتهم المعالجات الأمنية.

من نافل القول أننا نرهق أجهزة الأمن كثيراً ونلقي عبء مواجهة هذا الخطر عليها وحدها حين يتم حصر مكافحة الإرهاب داخل نطاق المؤسسات الأمنية فقط، وترك منابع ثقافة التطرف والتعصب تعمل بحرية وفعالية داخل المجتمع بأسره عبر وسائل الإعلام والثقافة والمكتبات والأشرطة الصوتية ومناهج التعليم والمساجد والمعاهد الدينية التي تتبع مناهج سلفية متشددة ووافدة من خارج الحدود، وغيرها من الآليات التي تسهم في صياغة وعي الناس، وتشكيل مواقفهم واستعداداتهم وممارساتهم.

وعليه فإنّ فعالية الدور الذي تلعبه الأجهزة الأمنية في ملاحقة الإرهاب وحماية المجتمع من مخاطره المدمرة، لا تنفصل عن الدور الذي يجب أن يلعبه المجتمع بأسره في حماية نفسه من ثقافة التعصب والتطرف والكراهية، الأمر الذي يستوجب التصدي الحازم لكل الأعمال والمناشط الفردية والجماعية التي تسعى الى إضفاء المشروعية الدينية على هذه الثقافة الهدامة والممارسات الناجمة عنها!!

أعتقد أنّنا الآن بحاجة إلى الصراحة و الشفافية والابتعاد عن القوالب القديمة عند مناقشة سبل مواجهة هذه الثقافة المتعصبة، لأنّها موجودة في بعض مكوّنات البيئة الثقافية والروحية للمجتمع العربي وليست وافدة علينا من كوكب آخر، وإن كانت دخيلة وغريبة على ديننا الإسلامي الذي يُعد مكوّناً محورياً للثقافة السائدة في مجتمعاتنا الإسلامية.

ومما له دلالة خطيرة أنّ الإرهاب المتستر بشعارات دينية في المجتمع اليمني المعروف بميوله الأصيلة للتدين، يحمل إشارة إنذار إلى مجتمعاتنا الإسلامية كي تنتبه لخطورة توظيف الدين سياسياً من أجل تحقيق أهداف دنيوية غير أخلاقية وذات أبعاد إجرامية على نحو ما حدث في مصر والاردن واليمن والسعودية والمغرب والجزائروباكستان، وغيرها من المدن العربية والإسلامية التي اكتوت بنار الإرهاب قبل ذلك.

وبالنظر إلى مضمون الخطاب الديني لقادة تنظيم « القاعدة » فقد حاول الخطاب الغربي الموجه إلينا، الإيحاء بأنّ معضلة الإرهاب الذي يقدم نفسه من خلال خطاب ديني إسلامي أصولي تعود إلى معضلة في النص الديني ذاته، لا إلى أسباب سياسية واجتماعية وثقافية !

تجدر الإشارة إلى أنّ مراكز الأبحاث والجامعات الأمريكية والأوروبية حاولت أن تطرح تساؤلا يتعلق بالأسباب التي جعلت جماعات العنف في العالم العربي والإسلامي تتخذ طابعا دينيا، وتتبنى خطاباً متطرفاً يجسد فهمها الخاص للنص الديني، بمعنى اتهام الثقافة الإسلامية بأنها قابلة لإنتاج هذا النوع من العنف، الأمرالذي يسهم في تكوين موقف سلبي إزاء العرب والمسلمين في سياق ما يسمى صدام الحضارات!

صحيح ان ثمّة محاولات فكرية عربية استهدفت تبرير الإرهاب من خلال إظهاره في صورة احتجاج إسلامي يتخذ شكل العنف، فيما أنبرت محاولات أخرى لحصر أسباب هذه الظاهرة في وجود انحراف في فهم وتأويل النصوص.. بيد أن المشكلة ليست في النص ولكن في طريقة قراءته وفهمه. فقد شهد العالم الإسلامي موجات من الاحتجاج ضد الاستعمار والانقطاع الحضاري بوسائل مشروعة، سواء من خلال حركات الإصلاح الديني في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالانفتاح على الحضارة الغربية، وعدم تكفيرها، ومحاولة الإفادة من منجزاتها، أو من خلال حركات التحرر الوطني التي قاومت الاستعمار الأوروبي وخاضت نضالا بطولياً في سبيل الحرية والاستقلال.

يقيناً أنّ الإفراط في تأجيل إدانة الإرهاب و التراخي في مكافحته، واشتراط أن يتم ذلك بوجود تعريف دولي للإرهاب، كان يعكس تفريطاً آخر في إدراك وتقدير كلفة هذا التأجيل، خصوصاً وأنّ لدى الأمم المتحدة حزمةً من القرارات الدولية التي تراكمت منذ عام 1961م، وجميعها يتضمن تعريفاً لمفهوم الإرهاب، وتأكيداً على حق الشعوب في مقاومة الاحتلال على نحو يميز بدون أي لبس بين الإرهاب ومقاومة الاحتلال ولا يحتاج بالضرورة الى إعادة تعريفه مجدداً .

ولذلك فقد استغلت القوى اليمينية والصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية تردد بعض الأطراف العربية عن المشاركة في الحملة الدولية للإرهاب بذريعة الحاجة الى تعريفه أو إعادة تعريفه ، حيث سعت هذه القوى إلى تكوين موقف يزعم بوجود بيئة عربية سياسية وثقافية تفرخ الإرهاب وتصنعه، وما ترتب عن ذلك من خلط بين الجماعات السلفية المتطرفة التي تحمل فهماً منحرفاً ومغلقاً للنصوص، وبين الحركات الإسلامية الإصلاحية المستنيرة، وجمعهما في سلة واحدة.

يبقى القول إنّ أحداث 11 سبتمبر تسببت في إلحاق أضرار مدمرة ليس بالولايات المتحدة، بل بالاقتصاد العالمي كله، الأمر الذي فرض على أجندة المجتمع الدولي ضرورة إعادة تشكيل وبناء السياسات الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية والدول الكبرى وبضمنها دول الاتحاد الأوروبي وروسيا واليابان والصين.. حيث أثارت هذه الأعمال الإرهابية ردود فعل عالمية واسعة جعلت من قضية مواجهة الإرهاب مهمة حيوية وحضارية، يتوقف فيها على تعاون كافة الدول من أجل مجابهة هذا الخطر.

في هذا السياق يمكن القول بأن الاسلام السياسي شهد تحولا خطيرا بعد التزاوج الذي تم بين الاخوان المسلمين والمؤسسة الدينية غير الرسمية في المملكة العربية السعودية على تربة الصدام بين جمال عبدالناصر وثورة 23 يوليو من جهة، وبين التنظيم الدولي للاخوان المسلمين بعد فرار الاخوان الى السعودية عقب فشل محاولة اغتيال جمال عبدالناصر التي خطط لها الجهاز السري الخاص للاخوان ونفذها في ميدان المنشية بالاسكندرية عام 1954م من جهة أخرى ، ما أدى الى صدور قرار من مجلس قيادة ثورة 23 يوليو بحل تنظيم الاخوان وهجرة قياداته وكوادره الى السعودية ، الأمر الذي أسفر عن إعادة بناء الايديولوجيا الجديدة للاسلام السياسي على تربة تكفير المجتمع العربي والاسلامي والنظام الدولي . وتقسيم العالم الواقعي الى فسطاط للايمان وآخر للكفار ، وغير ذلك من الأفكار المتطرفة التي صاغها كتاب (معالم في الطريق) للمفكر الاخواني سيد قطب ، ثم تبلورت في ما تُسمى (الصحوة الاسلامية) و(الفكر الصحوي) ، خصوصا بعد اختلاط الايديولوجيا الجديدة للإسلام السياسي بمخرجات فقه عصر الانحطاط في بيئة الجهاد الأفغاني التي لا يجب إنكار وتبرئة دور التنظيم الدولي للإخوان المسلمين في صناعة تلك البيئة الجهادية التي ألحقت كوارث خطيرة بالعالم العربي والإسلامي وفي مقدمتها المملكة العربية السعودية التي جعل الأخوان المسلمون من أراضيها ومؤسساتها الخيرية منشأً للايديولوجيا الجديدة للإسلام السياسي. ولعل ذلك يفسر المعاني العميقة للتصريح الشهير الذي أصدره الأمير نائف بن عبدالعزيز عام 2004 وتداولته على نطاق واسع وسائل الاعلام السعودية والعربية والعالمية ، والذي أتهم فيه الإخوان المسلمين بأنهم ((أصل المصائب في العالم العربي والإسلامي)) بحسب تعبير الأمير نائف.

وما من شك في أن المملكة العربية السعودية دفعت ثمنا كبيرا من جراء انتشار الفكر الضال والثقافة المتطرفة في المجتمع السعودي من خلال المناهج الدراسية والمدارس الدينية وتكايا المساجد والجمعيات الخيرية والتجمعات والمخيمات الصيفية والمدارس التي تتغطى بواجب تحفيظ القرآن ، بالإضافة إلى نمط الحياة المتشددة الذي يحاول المتشددون و المتطرفون تسويقه وفرضه بالقوة تحت واجهة حماية الفضيلة وردع المنكرات، عبر اقتحام المطاعم العائلية والتلصص على عورات النساء والحياة الشخصية للعائلات بحثا عن (النامصات والمتنمصات) ، مروراً بتحريم الغناء والموسيقى والألعاب الرياضية الرجالية والنسوية والسينما والمسرح ومختلف الفنون، وصولا إلى تكفير المجتمع والدولة والمثقفين والصحفيين والقنوات الفضائية والأفلام الكارتونية ، وممارسة الإرهاب والعنف ضد مؤسسات الدولة الأمنية والتجمعات السكنية والمواطنين الأبرياء.

من يتابع المشهد السياسي والثقافي والإعلامي في السعودية سيلاحظ بكل وضوح أن الأفكار المتطرفة تتراجع في بلد المنشأ، وأن تجربة الحوار التي أدارها في بلادنا شخص واحد فقط مع المتطرفين هو الأخ القاضي حمود الهتار ليست جديدة أو اختراعا يمنيا.. فقد سبقتنا إليها المملكة العربية السعودية من خلال ما تسمى بلجان (المناصحة) التي كانت وما زالت تتحاور مع أعضاء وأتباع تنظيم (القاعدة) من المتورطين في جرائم إرهابية في السجون السعودية على غرار ما كان يفعله القاضي الهتار مع الموقوفين في سجون الأمن السياسي .

لا أريد أن أعلق على نتائج حوارات القاضي حمود الهتار التي يرى كثيرون أنها لم تمنع استمرار الجرائم الإرهابية ، ناهيك عن الأسرار الخطيرة التي كشفها أحد المقربين من أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة في حوار مهم جدا نشره موقع (نيوز يمن) وصحيفة (الوسط) عام 2006م حول كيفية تعاطي أعضاء وأتباع تنظيم ((القاعدة)) مع هذه الحوارات !!، لكنني سأتحدث عن نتائج عمل لجان (المناصحة) في السعودية والتي لم يكن لها أي تأثير على وقف انتشار الجرائم الإرهابية في السعودية . مع الأخذ بعين الاعتبار أن ثمة مواجهة جادة للإرهاب في السعودية تتمحور بدرجة رئيسية حول تجفيف وسد منابع الثقافة المتشددة والأفكار المتطرفة بأشكال ووسائل مختلفة .. ولعل من يقرأ الصحف السعودية اليومية سيلاحظ أنها أكثر جرأة وجدية في مواجهة هذه الثقافة المتطرفة ، قياسا إلينا في اليمن وهو ما سنتعرض له بالتفصيل في الحلقة القادمة من هذا المقال.

عن / صحيفة (26 سبتمبر)

> ▫ المملكة العربية السعودية دفعت ثمنا كبيرا من جراء انتشار الفكر الضال والثقافة المتطرفة في المجتمع السعودي من خلال المناهج الدراسية والمدارس الدينية وتكايا المساجد والجمعيات الخيرية والتجمعات والمخيمات الصيفية والمدارس التي تتغطى بواجب تحفيظ القرآن ، بالإضافة إلى نمط الحياة المتشددة الذي يحاول المتشددون و المتطرفون تسويقه وفرضه بالقوة تحت واجهة حماية الفضيلة وردع المنكرات، عبر اقتحام المطاعم العائلية والتلصص على عورات النساء والحياة الشخصية للعائلات بحثا عن (النامصات والمتنمصات) ، مروراً بتحريم الغناء والموسيقى والألعاب الرياضية الرجالية والنسوية والسينما والمسرح ومختلف الفنون، وصولاً إلى تكفير المجتمع والدولة والمثقفين والصحفيين والقنوات الفضائية والأفلام الكارتونية ، وممارسة الإرهاب والعنف ضد مؤسسات الدولة الأمنية والتجمعات السكنية والمواطنين الأبرياء.

> ▫ الإرهاب الذي تمارسه جماعات متطرفة باسم الإسلام يتسبب في إلحاق أضرا ر جسيمة بمصالح المسلمين عموماً، كما يسيء في الوقت نفسه الى علاقتهم بالغير في إطار المجتمع الدولي والحضارة الإنسانية المعاصرة. حيث تحاول هذه الجماعات فرض وصايتها على العقل و الحقيقة والحرية، والتحدث باسم اللّه، والادعاء بحراسة الدين من خلال إباحة القتل وإهدار الأرواح وسفك الدماء ومصادرة حق الإنسان في الحياة وترويع الناس، وإثارة مشاعر الكراهية ضد أتباع الأديان الأخرى والمذاهب الاسلامية المخالفة الفكر الوهّابي والمهووسين به ، وما يترتب على ذلك من تهديد مباشر للسلم الاجتماعي على مستوى كل بلدٍ إسلامي، وصولاً الى زعزعة الأمن والسلم الدوليين على مستوى العالم الإنساني عموماً.

> ▫ من الواجب الاعتراف بأننا نرهق أجهزة الأمن كثيراً ونلقي عبء مواجهة خطر الارهاب عليها وحدها حين يتم حصر مكافحة الإرهاب داخل نطاق المؤسسات الأمنية فقط، وترك منابع ثقافة التطرف والتعصب تعمل بحرية وفعالية داخل المجتمع بأسره عبر وسائل الإعلام والثقافة والمكتبات والأشرطة الصوتية ومناهج التعليم ومنابر المساجد والمعاهد الدينية التي تتبع مناهج سلفية متشددة ووافدة من خارج الحدود، وغيرها من الآليات التي تسهم في تزييف وعي الناس، وتوجيه مواقفهم واستعداداتهم وممارساتهم باتجاه متطرف.

الغزل المشبوه !

كرم جبر

لا أتخيل أنّ حزباً فيه الدكتور رفعت السعيد، يمكن أن يبتلع طعم الغزل المشبوه الذي تدسه الجماعة المحظورة لأحزاب المعارضة المصرية، لأنّه معروف عنه أنّه أشد المعارضين للجماعات المتطرفة والدولة الدينية.. ولكن حسين عبدالرازق يمكن أنْ يفعل ذلك ويجلس مع وفد المحظورة على مائدة واحدة. ليس حباً فيهم ولكن نكاية في الحكومة.. ويمكن أنْ يلهث وراء الطعم ـ أيضاً ـ الدكتور أسامة الغزالي حرب المتحوّل سياسياً نحو أي جامعة يتصور أنّها يمكن أنْ تكون له سنداً ونصيراً.. أما حزب الوفد فعنده حصانة تاريخية ضد الآعيب المحظورة موروثة من فطنة ودهاء فؤاد سراج الدين رحمه اللّه.. ويبقى الحزب الناصري الذي تتصور بعض قياداته أنّ المحظورة يمكن أنْ تنسى الثأر التاريخي من الثورة وقائدها جمال عبدالناصر.

لقد دب الحماس فجأة في كيان «المحظورة»، واكتشفت أنّها قطعت صلة الرحم مع أحزاب المعارضة المصرية، وأرادت أنْ توصلها في شهر رمضان الكريم، في زيارات مكوكية خاطفة، باءت بالفشل في حزب الوفد لكنها عقدت في التجمع دون حضور رفعت السعيد، وكان الشعار الزائف المرفوع هو «مد جسور التواصل مع القوى السياسية».

1 - مخاطر حالة «اليأس السياسي»!

من حق أحزاب المعارضة المصرية أنْ تجتمع مع من تشاء من القوى السياسية، فهذا حقها الدستوري، ولكن الدستور ـ أيضاً ـ وضع ضوابط وضمانات لحماية الحياة السياسية من العبث باسم الدين، ولا يختلف أحد مع فكرة الدولة المدنية التي تحمي الوطن ومواطنيه من حمى التعصب والتطرف الديني.. والسؤال هنا : هل أعلنت المحظورة صراحةً أو ضمناً أنّها مع الدولة المدنية؟!

المحظورة تريد أنْ تشكل نظاماً سياسياً على مقاسها، ولا تريد أبداً الاندماج في النظام السياسي القائم الذي يمنح الأحزاب السياسية الشرعية حقوقاً قانونية ودستورية، دون التفاف أو اختراق أو تسلل، كما تفعل المحظورة التي تريد التحايل على النظام بأي شكل، باستغلال شعارات دينية تحتكرها لنفسها، وتميز نفسه دون غيرها من القوى والأحزاب السياسية بأنّها تريد الدين والسياسة في صفقة واحدة.

كيف ـ إذن ـ تتم عملية مدّ الجسور بين المحظورة وأحزاب المعارضة دون أنْ تطمئن الأحزاب على فكرة مدنية الدولة، التي تحمي البلاد من الفتن والصراعات الدينية والطائفية والعرقية؟ وهل يتصوّر أعضاء حزب التجمع أنّ المحظورة سوف تعطيهم جزءاً من الكعكة حال وصولها المستحيل إلى السلطة، أم أنّهم سيكونون أول من تدق عظامهم وتُزيّن بجثثهم الميادين؟!

هذه الأسئلة يعرف إجابتها جيداً حسين عبدالرازق وأمينة النقاش والدكتور سمير فياض، الذين استقبلوا وفد المحظورة، لكن يبدو أنّ سنوات اليأس السياسي التي تعيشها بعض الأحزاب تدفعها إلى البحث عن أية وسيلة للخروج من العزلة، حتى لو كان ذلك بالارتماء في أحضان الخطر!

2 - الوفد وحصانة الماضي

لم تتم زيارة المحظورة لحزب الوفد، والمرجح أنّها لم تتم لأنّ الوفد هو أكثر الأحزاب المصرية التي عاشت مآسي المحظورة منذ نشأتها، سواء قبل الثورة أو بعد عودة الأحزاب السياسية في السبعينيات.. وكان وفد ما قبل الثورة أكثر دراية ووعياً، وكانت مواقف فؤاد سراج الدين أكثر شدة ووضوحاً، ولا تنس أنّ قرار حل جماعة الإخوان المسلمين صدر قبل الثورة وعلى يد حكومة النحاس باشا الوفدية.

نتذكر أيضاً فؤاد سراج الدين حين كان وزيراً للداخلية قبل الثورة استدعى الى المكتبه مؤسس الجماعة حسن البنا، وواجهه بعنف وشراسة وطلب منه أنْ تُحدد الجماعة هويتها، فإما أنْ تكون دينية، وبالتالي تبتعد عن السياسة، وإما أنْ تكون سياسية، وبالتالي لا تستخدم الدين في دعايتها، ولكن البنا ناور وراوغ وتهيب من تحديد هوية جماعته.

تكرر المشهد في الثمانينيات، وتحالف الوفد مع الجامعة المحظورة في الانتخابات البرلمانية بنظام القائمة، وحصلت بعض عناصر الإخوان على عدة مقاعد في البرلمان، وعندما أرادوا اقتسام الحزب مع فؤاد سراج الدين كان يقظا لخدعتهم، وقرّر أنْ يتغدى بهم قبل أنْ يتعشوا به، وانتهت اللعبة بخروجهم من الوفد، وحاولوا مع أحزاب أخرى، لكن محاولاتهم باءت بالفشل.

3 - القفز فوق الثأر التاريخي

أغرب صور الغزل المشبوه هي اللقاءات التي تتم بين حين وآخر بين المحظورة وبعض القيادات المنسوبة للتيار الناصري، خصوصا القيادات التي كان لها موقف معادٍ للمحظورة أيام حكم الرئيس عبدالناصر، ولكنها تحاول الآن أنْ تقفز فوق الثأر التاريخي الموروث.. الذي لن تغفره أبداً الجماعة المحظورة.

المحظورة بدورها لا ترفض الغزل الناصري، ولكنها في الوقت نفسه لا ترحب به وتتعامل معه على مضض، فلن تنسى أبداً لعبد الناصر أنّه مزّق صفوفهم وقضى على قوتهم في حملتين شهيرتين في أواخر الخمسينيات ومنتصف الستينيات.. ويلتزم الناصريون القدماء أمثال محمد حسنين هيكل بالصمت السياسي تجاه ممارسات المحظورة، وفي أحيان أخرى تحمل آراؤهم وتحليلاتهم نوعاً من النفاق أو الخوف السياسي.

فشل التيار الناصري في أنْ يكون له تواجد قوي وملموس في الشارع السياسي، هو الذي يدفع بعض التيارات داخل الحزب بأنْ تفتحَ حواراً مع المحظورة، بوهم أنّ التنسيق يمكن أنْ يكون مفيداً للجانبين، ولكن فشلت كل المحاولات في الانتخابات البرلمانية الماضية، ويبدو أنّ أوجاع الماضي جعلت هذا التقارب شبه مستحيل.

4 - الحجج القديمة والمتغيِّرات الجديدة

تكتسب المحظورة وجودها بسبب هشاشة وضعف أحزاب المعارضة التي ما زالت تعلق ضعفها وفشلها على شماعات لم يُعد لها وجود، مثل قانون الطوارئ الذي تتهمه بأنّه يحول دون اتصالها بالجماهير، وكانت الصورة الوحيدة للاتصال هي السرادقات التي تُقام في الشوارع.. في الوقت الذي أصبح فيه «الفيس بوك» مثلاً أكبر شبكة اتصال بين الجماهير.

مثل هذه الحجج القديمة تثيرها الأحزاب القديمة مثل الوفد والناصري والتجمع، بينما الأحزاب الأخرى يكادُ يكون تواجدها محصوراً في الصحف التي تصدرها أو الأشخاص القليلين الذين يحضرون لمقراتها وفيما عدا ذلك، أصبحت الساحة السياسية شبه خالية، ويزداد الأمر صعوبة لأنّ معظم الأحزاب لا تملك برامج للمستقبل. وتفتح بارقة أمل لأنْ يكون لها دور أو تواجد ملموس.

من ثغرة الفراغ السياسي تحاول المحظورة النفاذ إلى الأحزاب وإلى الناس، فهي توهمُ الأحزاب بقدرتها على دعمها جماهيرياً، وتوهم الناس في الوقت نفسه بأنّ أحزاب المعارضة لا ترفض وجودها رغم أنّها خارجة عن إطار الشرعية.. وسوف تستمر هذه اللعبة في المستقبل، خصوصاً في السنوات الصعبة القادمة التي تشهد انتخابات برلمانية في الشعب والشورى وانتخابات رئاسية، ولا تملك أحزاب المعارضة خططاً واضحة للتعامل مع المستقبل.

5- اصطياد مشاكل الجماهير

باتت هذه اللعبة مكشوفة ومفضوحة لدى قطاعات كبيرة من الرأي العام، حيث وظفت المحظورة وجودها في بعض الأحداث والمشاكل الجماهيرية التي تكتسب من ورائها شعبية، ولكن عمليات الخداع لا يمكنُ أنْ تستمرَ الى ما لا نهاية. واكتشفت أحزاب المعارضة زيف دعاوى المحظورة في أحداث كثيرة آخرها الدويقة.

المحظورة ترفضُ مبدأ التنسيق مع أحزاب المعارضة في القضايا التي تخدمُ الجماهير؛ لأنّها تريد أنْ تحتكر الأمر لنفسها، ولكنها تنادي دائما بالتنسيق السياسي في الأوقات التي تشعر فيها بالعزلة والأزمة، وأنّها تريد كسر عزلتها بلقاءات الغزل المشبوه التي تنتهي بالفشل، لأنّ الهوة بين المحظورة والأحزاب واسعة، ولا يمكن سدها بمثل هذه اللقاءات الهامشية.

المحظورة تحاول الصيد في أزمات الأسعار ومياه الشرب ورغيف الخبز والبطالة، وهي المشاكل الملحة التي كان من المفترض أنْ تتبناها برامج الأحزاب وخططها، وتتعامل مع هذه المشاكل من زاوية واحدة هي تضخيمها وزيادة حدتها، واللعب على مشاعر وأحاسيس الجماهير دون تقديم خطط أو حلول أو تصورات للمستقبل.

6 - الاعتداء على حقوق الأقباط والمرأة

في الوقت الذي تتاجر فيه المحظورة بقضايا الناس، أفصحت عن نواياها القديمة في الاعتداء على الدستور الذي يكفل الحقوق المتساوية لأفراد المجتمع. بما في ذلك المرأة والأقباط، وتتمسك عناصر المحظورة وبرنامجهم بالانتقاص من الحقوق السياسية للفئتين.. والسؤال هنا : كيف يكون تبادل الآراء والتنسيق بين المحظورة والأحزاب السياسية، بينما هي تعتدي على حقوق جزء أصيل من الشعب المصري وتحرمه من العدالة والمساواة؟

ماذا يمكن أنْ تقول أحزاب المعارضة للرأي العام؟. وهل عبّرت عن رفضها واستيائها من إصرار المحظورة على حرمان المصريين من حقوقهم لأسباب دينية وعنصرية؟ وكيف قبلت أمينة النقاش ـ مثلاً ـ أنْ تجلس على مائدة واحدة مع أعضاء المحظورة الذين ينقصون حقوق المرأة؟.. كيف قبلت ذلك وهل تنتمي الى التيار اليسار الذي يرفض مثل هذه الآراء المتخلفة التي كانت السبب الرئيسي وراء معاناة المرأة وتراجع دورها في المجتمع ؟

لقد حاول بعض «محللي» المحظورة في الفترة الأخيرة أثناء عناصرها عن فكرة انتقاص حقوق المرأة والأقباط، وألا يكون ذلك بشكل مُعلن وصريح في البرنامج، غلا أنّه رفضوا ذلك تماماً، رغم أنّهم الآن في حالة استعطاف للرأي العام، فما بالنا إذا «تمكنوا»؟

7 -كل المحاولات كانت فاشلة !

سواء قبل الثورة أو بعدها، سواء أيام الملك فؤاد أو فاروق، أو في فترات حكم الرؤساء عبدالناصر والسادات ومبارك.. أثبتت التجارب والدروس أنّ المحظورة لا يؤتمن جانبها، وأنّها لم تقترب من أي نظام حكم أو تحالفت مع أية جماعة سياسية، إلا وانقلبت عليها.. لأنّ فلسفة الجماعة هي الدين والسياسة معاً، والوصول إلى السلطة عبر شعارات دينية تثير الفرقة والفتنة بين أبناء الوطن الواحد.

ما أخذه الوفد حين تحالف مع المحظورة في الثمانينيات، يمكن أنْ يأخذه التجمع والناصري إذا تحالفا مع المحظورة في الوقت الراهن، وما فعلوه مع الرئيس السادات الذي رفع شعار الرئيس المؤمن، وفتح لهم أبواب السجون والمعتقلات وأعادهم إلى الحياة السياسية، يمكنُ أنْ يفعلوه مع غيره، لأنّ الجميع من وجهة نظرهم هم «سلمة» للصعود إلى السلطة.

أحزاب المعارضة التي تستكين لحالة الغزل المشبوه مع المحظورة، تعرف ذلك جيداً وتحفظه عن ظهر قلب، وتعرف أنّ مصيرها هو الغدر والخيانة، ولكنها تقدم على ذلك كنوع من المكيدة السياسية للحزب الحاكم، الذي تتهمه بأنّه يحتكر السلطة، ولا يترك لها حتى الفتات.. والسؤال هنا :

هل من مصلحة الحزب الحاكم أنْ يترك أحزاب المعارضة تتآكل في عزلتها وتترك الساحة شاغرة للمحظورة؟ أم يجب أنْ يمدّ لها يد العون والمساعدة التي تنهض، وتقوم بتصحيح الخريطة السياسية؟

8 - الكرة في ملعب الحزب الوطني

أتصوّر أنّ الحزب الوطني في حاجةٍ لأنْ يقوم بخطوة أكبر من مؤتمرات الحوار التي جمعته في السنوات الماضية مع أحزاب المعارضة، وثبت فشلها ولم تؤد إلى التقارب، بل مزيدٍ من الاختلاف والتباعد.

إذا كانت الحياة السياسية أشبه بدوري كرة القدم، فالمنافسة لن تشتعل ولن تكون حقيقية وشيّقة غلا إذا ضمّت أكثر من فريق لديه القدرة والكفاءة على خوض المنافسات الشرسة القادمة سواء في الانتخابات البرلمانية أو الرئاسية، وهي محطات ديمقراطية مهمة وخطيرة، وتفتح الطريق إلى الممارسة الديمقراطية التي يستحقها هذا الشعب.

الغزل المشبوه الذي تتبناه المحظورة هو مجرد طعم فاسد للصيد في الماء العكر، لكن لن يُقدّم ولن يُؤخر، ولن ينفع أحزاب المعارضة، ولن يخلصها من عزلتها ولن يفتح لها الطريق أمام الجماهير.. وليس متصوراً أنّ المحظورة لا تنام الليل من أجل أحزاب المعارضة وأنّها مهمومة بالتفكير فيها وفي مصلحتها.

الطريق الوحيد هو أنْ تجيب أحزاب المعارضة عن ثلاثة أسئلة مهمة :

أين نحن الآن؟.. أين نريد أنْ نصل؟ كيف نصل إلى هناك.. وإذا فعلت ذلك فسوف تهوّن على نفسها كثيراً في المراوغون الديمقراطي الشاق.

عن مجلة (روز اليوسف)